

محمد بوخبزة
ريشة في مهب الابداع

□ قطب الربيعوني

عرفته شيخاً مملوء الوطاب،

ريان المعارف،

مورود الحوض..

وعرفه قبلي، قرناؤه وأشكاله، مبدعاً تأخذه وضاء العبارة كأخذه السحر، وتستهويه نظارة

الحرف بألوانها والتحاسين..

راود الشعر عن نفسه وهو فتى غض لم يطر شاربه بعد، ولانبت عذاره، فطاوعته منه أبيات

نافرات جامحات، يركض على إثرهن، وتلهث الأنامل!! فيقعن في شركه، وقد قد من قميصهن

الدبر!!

ولما آنس في شعره رشداً،

وفي صوغه دفقا،

انطلق لسانه..

كشحارير الشام، يطر بن ويشنفن، ولا أروع..

وانبجست ألوانه..

روعة دفق، وانثيال، ولا أحلى..

واخضلّ بيانه ..

كحقول الورد، ولا أهيء ..

كانت (الحديقة)^١ خلوته وجلوته، يغازل في الشعر، كواعبه وربات الخدور، فلا صد ولا هجر،

لا وشاة ولا عدال !!

وكانت (الندوة)^٢ فسحته وسلوته، يلتقي في أحضانها ثلة من أدباء المدينة، بين معالج للقريض:

عموده والحر، ورواية للأشعار: قديمها والحديث، وناقد للإبداع: نصوصه والفصوص ..

وكانت (الكنانيش)^٣، بوحه وفوحه، يودعها قافية مجلوة، و(بحراً) يغل على شطآن خياله سلال

الأصداف ...

عرفته شيخاً يحب معتزله بين الكتب والأعلاق،

وينفق بياض النهار وشطرا من الليل في قراءة آثار فرسان الكلمة من زمن الجاحظ وأبي حيان،

والجرجاني، وابن بسام، وابن الخطيب، وابن زمرك، والمقري.

وعرفه قبلي، الأقارب والأبعاد، فتى مولها بضنى الصنيع، متعطشا مرأشفا الإبداع، يمتح منها

رأاة الأنغام، وسقسقة الأحن، كالنحلة تعتصر من أكام الطبيعة رحيق الخير، ولا تضع إلا

طيبا في عشايا ربيع مخضل ..

استجاشته ذكرى كالعبق يضوع من مجامر ومباخر،

كالنور يكحل أشفار الدجنة، ودروب الليل ..

فغرد منه القلب، يفرغ من وتره، حمولة عطر، ولون، ونغم:

تقبل - صفي الله - شكوى مودع

وينهى - على استحيا - إليك تحية

يطيب لها من حاضر الصب غائبه

^١ مجلة ثقافية أدبية شرع في إصدارها سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، وتولى إدارتها الشاعر بمعية أدباء المدينة من الشباب، وقد صدر منها خمسة أعداد.

^٢ هي ندوة أدباء الشباب أسسها الشاعر في أواخر الأربعينيات الميلادية، وكان مقرها في مبنى متواضع بحي السلفه، وقد استقبلت عدداً غير ضئيل من شدة الأدب، وطلاب العلم، أمثال المهدي الدليرو، عبد الواحد أخريف، محمد البوعناني، أحمد بلقات، انظر (شذرات تطوانية) للدكتور حسن الوراكلي، منشورات جمعية تطاون أسمير، ٢٠٠٢م، ص ٣٠-٣١.

^٣ كنانيش: يودعها الشاعر مقطوعات من شعره، وبعض الفوائد الفقهية والحديثية والتاريخية.

وأغلى المنى عندي نوال شفاعة

فأرجو لها من لا يخيب راغبه

فلا مذهب لي بعد سنتك التي

أرى غيرها همجا يضلل راكبه

وفي القلب من حب الحديث وأهله

عكوف تباهى بالغرام محاربه

عليك صلاة الله يا خير مرسل

به الختم زالك، والسلام يصاحبه^٤

وأهاب به البرور فأجاب،

يدرك للأبوة غير يد، وفضل، ومنة،

ويعرف لحنوها نبعا يفيض كالسلسيل، ويخصب جوادب النفس والآفاق:

هو الأمين بن عبد الله يرفعه

إلى العلا نسب يعزى إلى العلم

تخطفته المنايا وهو مغتبط

بالدين والعلم والأخلاق والقيم

فارحم إلهي رفاته ضممه جدث

وحطه بالعفو والغفران والنعم^٥

وعرف لشيوعه، بعد ذلك، فضلا ينقص قليلا عن فضل الأبوة، حتى إذا بلغه نعي أحدهم

سبقت ريشته دمعته، وحرفه موجدته، ومن هؤلاء تقي الدين الهلالي صاحب الهداء الجميل

والنبيل على درب الدعوة:

ألا يا ناعي العرفان أقصر

أتدري من نعت من الرجال؟

^٤ من كناش مخطوط للشاعر، ص ٣-٤.

^٥ من كناش مخطوط للشاعر، ص ١٦.

أصبت بنعيك المضي فئاما

من الأبرار - ويحك - بالخبال

تقي الدين فخر بني هلال

توفي فانتشى حزب الضلال

قضى شيخ الدعاة فكل حـر

بالأم الفجيعة ذو اعتلال

فكان مبشرا كالريح تـرجي

سحاب الغيث مرجو النوال

يزور مواقع الإحمال غوثا

عظيم النفع في مدن الشمال

وفي غرب وفي شرق قصي

تألاً بـدره وسط المجالي

فسل هندا وأفغانا ونجدا

وإيرانا تجد خير الرجال^٦

وأولى بالفضل كله، والحب كله، والوفاء كله، رفيقة دربه، وحافظة سره، أم البنين والبنات،
تسعه أشفاره وأشعاره، وجنانه وبيانه.. وهك صورة من وفائه يظفرها فلا وياسمينا في محارب
العشق والشعر:

وقد شهد الله العلي بأني

أهيم - كأقراي - بوادي الهوى عمدا

كلانا له إلف يمن لقربه

والفيّ في تطوان ينتظر العودا

بيت له من أضلعي عش صبوة

يقيم به دوما فلا أختشي البعدا^٧

^٦ من كناش مخطوط للشاعر، ص ٥-٦.

وصورة بهذا القدر من الطلاوة والنداوة يقدها نحت إزميل، وتدحوها يد رسام، ولو تكررت أخواتها ومثيلاهما في شعر (بوخبزة) خلقت به جناحات غير منظورة إلى سدرة الخواطر المنححات واللففات الأبخار، لكنه يرسل القوافي على سجيتها إرسالا، فيفلت عنان النظم فيها من يد الصقل والتجويد، لتستأثر به يد العفوية والارتجال، فتنشئه إنشاء لاحظ فيه لضي الصنيع وحرقة الإبداع.. وذلك مذهبه في فن القول، يلزم به نفسه، وينقد في ضوئه الآخرين!! وجولته في مسرح، النثر غير قصيرة..

أخذت فيه الكلمات زينتها،

واختالت كعرائس شمع..

تطالعك في تقديم كتاب، وصدر خطاب، وترجمة علم، ممتطية سهوة ساجعة، ومستبيحة بيضة استعارة..

ولا تخطئ في طلعتها قسما من وجوه وضيئة متألقة في دنيا النثر والترسل، كالجاحظ، وأبي حيان، وابن بسام، وابن الخطيب، وغيرهم من أمراء البيان وفرسان الكلمة..

وهاك من نشره الذي أخذ بلبي وسحر العين، من خطاب أرسله إلى أخيه وصفيه الأديب المبدع القصاص حسن الوراكلي، وقد جمعها -عبر عقود من الزمن- زمالة علم وأدب موصولة غير مقطوعة، وعلائق ود وواق دافق:

"فقد طال أمد اللقاء وكاد ينبت حبل الرجاء بين انتظار امتد زمانه، وترقب تمادى أوانه، وبينما أنا أقلب أوراقا وأكياسا، وجدت بين رسائل أجيب، ومكاتيب بت فيها، رسالة منكم سابغة الذيل، وافرة النيل، فقرأتها مستغربا وجودها بين لداها المجابة، ذاكرا أنها نالت مني احتفالا وإجابة، إلا أنه رابني عدم وجود نسخة الجواب، وعادتي الاحتفاظ بها للرجوع عند الاقتضاء، ولكني ألغيت لعل وعسى وربما، وأخذت القلم لتجديد الخطاب، لا لتوجيه العتاب، على أن لا محل له من الإعراب، لتوالي البر والرعاية، والاهتبال والعناية، شنشنة أعرفها من أخزم، ومكارم أنا لها من أخ أبر وأحزم".

حقك على الأدب، وأنت من أهله وخاصتهن أن يكتب اسمك في سجل المتخشين في محارب
الكلمة، ومعابد الحرف، ويذكر من مزاياك والخلال: أن صباة ملء الجوانح وسويداء القلب،
علمتك كيف تملأ بياض العمر، وتذيب صقيع الروح!!

وحق الأدب عليك، أن تفتح أكمام محابرك عن أزاهير بوح، وسنابل شدو، واضمات
حذاء، كما تفتحت، في طور فتاء السن وغضاضة الإلهاب، عن غلال وسلال، توشحت بها
صحف المدينة: (الحديقة)، (لسان الدين)، (النصر)، (النور)، واخضلت بها ندوات مباركات..
فهل نمى النفس، وقبل ذلك أهل البيان، بديوان شعرك ونشرك، يخرج من بين فرث ودم
عصارة جنان ووجدان، وزبدة أشواق وأذواق??

ذلكم حلم مدينتنا الأدبي، وما أكثر أحلامها الكاسفات الضائعات!!
وما أكثر عنادها اللاتي شدون، ثم تلاشى شدوهن في زحام السنين، وضوضاء الحياة!![^]

إلى هنا إنتهى ما خطه يراع الأستاذ الشاعر قطب الريسوني حفظه الله ونفع به.
في شيخنا حسنة الأيام محمد بن الأمين بوخبزة الحسني نحسبه كذلك والله حسيبه.

اختاره / عبده ربه الراجي لعفوه
منير بن أبي محمد

موقع فضلية الشيخ (أبي أريس محمد بوخبزة الحسني)

<http://www.bou-khobza.com>

[^] نُشر بمجلة النور التطوانية، العدد ٤٣٦، سنة ١٤٢٤.